"حقيقة الأنثروبولوجيا البنيوية وآفاق الاستفادة من جهود كلود ليفي شتراوس"

The Reality of Linguistic Anthropology and Benefice Horizons from Levi Strauss' Efforts

بن عزوز حليمة [1]

[1] جامعة ابي بكر بلقايد تلمسان، halima.benazzouz@mail.univ-tlemcen.dz

تاريخ الإرسال: 2018/02/24 **تاريخ القبول:** 2020/12/01 **تاريخ النشر:** 2020/12/15

ملخص: إننا سواء نظرنا إلى البنيوية كتيّار فكري ضمن تيارات الفكر الغربي المعاصر أو بوصفها منهجا جديدا في العلوم الإنسانية فإنّها لا محالة ظهرت وتأسّست في مجال الأنثروبولوجيا قبل أن تمتدّ لتشمل مختلف الفروع المعرفية الإنسانية المختلفة. البنيوية من حيث هي منهج قديمة العهد أمّا من حيث هي مذهب فلسفي شامل فهي ظاهرة حديثة في الفكر المعاصر وغدت بذلك مذهبا في العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية مع أنّ منشأها علم اللغة الحديث وبالأحرى، يمكن للفكر البنيوي أن يحدّد بكامله في نتاج جهود"كلود ليفي شتراوس". من هذا المنطلق، سنعمل على تقصّي حقيقة الأنثروبولوجيا البنيوية في ضوء الاستفادة من جهود كلود ليفي شتراوس.

الكلمات المفتاحية: البنيوية– كلود ليفي شتراوس– الأنثروبولوجيا– العلوم الاجتماعية– العلوم الإنسانية

Abstract : Either we observe Structuralism as a thinking doctrine amongst the ecent western thinking doctrines or describe it as a new methodology in human sciences, it is absolutely established inside Anthropology before widening to nclude different human cognitive types. Structuralism is ancient from a methodological side but rom a large philosophical doctrine, it is merely a modern phenomenon in the contemporary thought which becomes a doctrine in social and human sciences, thus its birth is mainly in modern linguistics. Therefore, all structuralist thought could be determined in the production of « Claude Levi Strauss efforts. From this point, we're going to explore the reality of Linguistic Anthropology on the light of the benefice from Levi Strauss' efforts.

Key–words : Structuralism– Claude Levi Strauss– Anthropology– Social Sciences– Human Sciences.

المؤلف المرسل: بن عزوز حليمة ، **الإيميل:** benazo113@gmail.com

حقيقة الأنثروبولوجيا البنيوية وآفاق الاستفادة من جهود كلود ليفي شتراوس"

1- مقدمة:

إنّ الدراسات البنيوية في مجملها أصبحت في الوقت الرّاهن تشكّل جزءا من تاريخ الفكر المعاصر إلاّ أنّها لا تزال تثير جدلا هائلا وبالخصوص بعد التطوّرات التي عرفتها التطبيقات البنيوية في ظلّ مختلف المجالات المعرفية المتعدّدة تزامنا مع ظهور ما يسمى بـ "ما بعد البنيوية" أو بـ "البنيوية الجديدة وفلسفات ما بعد الحداثة" وكلّها تمثّل روافد اتجاهات تستلهم أسئلتها النظرية ممّا طرحته البنيوية سواء كان ذلك في ظلّ التحوّل الذي عرفته البنيوية الأدبية من بنية النص إلى سيميائية النص أو البنيوية الماركسية أو الأركيولوجية أو التفكيكية وكلّها فلسفات تجد قاعدتها في البنيوية وخاصة في ثلاثة محاور أساسية هي: تجديد العلوم الإنسانية والاهتمام باللغة ونقد العقل والتاريخ وإن كان ما يزال هنالك من يواصل البحث البنيوي بالطريقة التي أسّسها ووظّفها "كلود ليفي شتراوس" فالبنيوية إذا من حيث هي منهج قديمة العهد أمّا من حيث هي مذهب فلسفي شامل فهي ظاهرة حديثة في الفكر المعاصر وغدت بذلك مذهبا في العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية.

- **تشخيص لواقع ما قبل البنيوية:**

تزامنا مع مطلع القرن السابع عشر، بزغ نور اتجاه جديد يطالب بهيمنة العقل بحكم أنّ قوى الطبيعة كانت بحاجة إلى ذلك. ومن هذا المنطلق، كان لزاما على الإنسان أن يحكّم عقله لتحقيق هذه الغاية "يعمل على تحقيقها من خلال انسجامه مع العقل دائما" (وكاسيه، الفلسفات الكبرى، 1983، صفحة 94) ولعلّ هذا ما يتفق مع أفكار علماء النهضة وفقا لمتطلبات آليات وضوابط محددة بعيدا عن نقاشات المذاهب الدينية والفلسفية ولقد جاء "ديكارت"(1596-1650) ليؤكّد أهمية العقل (في القرون الوسطى، تنبّه روجيه بيكون إلى أهمية العلم الاختباري وتوجّه بعد ذلك فرنسيس بيكون إلى الطبيعة التي تفوق في نظره عقولنا في الدقة أمّا ديكارت فيرفض كل ذلك ويدعو إلى سيادة العقل). منطلقا من تواجد مبادئ وحقائق بسيطة يدركها العقل وحده عن طريق الحدس ومكنته من جانب آخر على تفهّم حقائق أخرى أكثر تعقيدا بواسطة الاستنتاج والذي يعدّ أبرز أدوات العقل ليصوغ مقدمة عولمتنا الحديثة ولكنّ

العقل لدى "ديكارت" كان بحاجة إلى ضمانة و قد وجدها في إيمانه بالله (زيناني، 1980، الصفحات 81-82)

1. و جاء "باسكال" فيما بعد باكتشافه للتنوعات التي يمتاز بها الفكر العلمي فاتّحدت عقليته بجوهر مفهوم العقل الديكارتي لتبرز نزعة الوصول بالعقلية إلى سلطة النظام على يد "لايبنتز" (1646-1716) (وكاسيه، الفلسفات الكبرى، 1983، الصفحات 111-113) وواصل الاتجاه الذي يرمي إلى سيطرة العقل المنطقي المنظّم مسيرته على يد فلاسفة آخرين منهم "مالبرانش" (وكاسيه ب.، الفلسفات الكبرى، 1983، الصفحات 119-120) (الذي رسم لمعاصريه أخطار العقل الملحد وتلاه "سبينوزا" والذي اعتبره "تودوروف" مؤسّس النقد الحديث (حسين، البنيوية-تودوروف-، صفحة 21) وبرز دور فلاسفة آخرين منهم "بيار بايل" و"فونتيل"، هذا الأخير الذي مثّل انتقالا حيّا بين عصر العقل وعصر النقد البنيوية، (حسين، البنيوية، 2010، صفحة 15) لتبدأ أزمة الوجدان الأوروبي بالتبلور(الرغبة في إبقاء مكانة الإنسان ضمن مملكة العقل) ممّا كانت حافزا لإعادة النظر بجميع القيم السياسية والدينية في أواخر القرن السابع عشر.

ثم يأتي دور فلاسفة التنوير "ج . ب . فيكو"(1668-1744) و"منتيسكو" واللذان كانا مهتمّين بالمكونات الثقافية للنظام الاجتماعي أكثر من اهتمامهما ببنيته "وقد نشأ مثل هذا الاهتمام من مساعيهم الرامية إلى تفكيك الفلسفة الأخلاقية والسياسية إلى عناصر علمية غير ميتافيزيقية وعقلية في المقام الأوّل" (زيناني، 1980، صفحة 134)

ونتيجة للتنوير "تحرّرت الفلسفة السياسية والأخلاقية من قيود اللاّهوت وعلوم الإلهيات وتحوّلت إلى علوم أمبريقية" الفلسفة وجذور العلم الاجتماعي، (زيناني، 1980، صفحة 144) وتتواصل النزعة العقلية في تفاقمها حتى تبلغ "هيوم" الذي خلق نقدا حرّا عميقا لدرجة أنّه خلق قيما جديدة في ميدان فلسفة العقل (وكاسيه ب.، الفلسفات الكبرى، 1983، الصفحات 131-140) وجاء بعد ذلك

"كانت" ليفيد من علم "نيوتن" ودقة "هيوم" وليرسّخ العقلية العلمية ويعطيها مكانتها المناسبة ويقود الفلسفة الأوروبية من عصر النقد إلى عصر المذاهب (وكاسيه ب.، الفلسفات الكبرى، 1983، الصفحات 131-145) ويسطع فيما بعد دور فلاسفة آخرين نادوا بمثالية "كانت" ذو التربية الدينية المحافظة نذكر منهم "هيغل"(1770-1831) و"نيتشه" و "غوتيه"(1749-1832) و "أوغست كونت"(1798-1857) الذي ظهرت على يده(الإبستيمولوجيا الوضعية) ويعدّ "أوغست كونت" ابن عصر التنوير الذي جرى على تقليد و ثرات فلاسفة التقدم في أواخر القرن الثامن عشر (المعطي، 1981، صفحة 87) وبكتابه(**دروس في الفلسفة الوضعية**) أثار عددا لا يستهان به من المشكلات المتعلّقة بنظرية المعرفة والتي بفضلها وجد تحديد لمعنى العلم بل و تحديد لعلاقة الفلسفة بالعلوم ككلّ كما أنّ "كونت" يقدّم تصنيفا للعلوم (حسين، البنيوية، 2010، صفحة 17) يمكن أن نعدّه متقدما على ما سبقه من تصنيفات لكونه يقدّم مبادئ مستقاة من دراسة تاريخ العلوم.

2. وبما أنّ الفلسفة الوضعية نشأت في فرنسا في القرن التاسع عشر في عصر يزامن الاضطرابات المجتمعية والسياسية في أعقاب الثورة الفرنسية الكبرى، فقد هيمن اتجاهان بارزان آنذاك، أحدهما يناصر النظام إلّا أنّه يحارب كلّ جديد وثانيهما يناصر التقدم إلّا أنّه يدعو إلى الفوضى والخروج على الأنظمة السائدة وكان من بين الهواجس الكبرى لدى "أوغست كونت" أن يتوصّل إلى تآلف وانسجام بين فكرتي النظام والتقدم في إطار نموذج أو اتجاه واحد لا يحمل في أحشائه عناصر التناحر بينهما (وقيدي، الإبستيمولوجيا الوضعية عند أوغست كونت، 1982، صفحة 206) و هاهنا، يجب أن لا ننكر أنّ القرن التاسع عشر شهد على الصعيد المعرفي درجة فائقة من تطوّر العلوم الرياضية والفيزيائية فضلا عن بدايات النجاح بالنسبة لعلوم الحياة ممّا يعني أنّ المعرفة العلمية شملت بنجاح كلّ الظواهر الكونية ماعدا الظواهر الإنسانية. ومن هذا المنطلق بالذّات، تولّد ذلك الهاجس في نظر "كونت" بحتمية ضرورة إقامة علم خاص بالمجتمع يضارع العلوم في دقتها وانضباطه (وقيدي، الإبستيمولوجيا الوضعية عند أوغست كونت، 1982،

صفحة 207) وانطلاقا من هذه الأرضية، حاول" كلود ليفي شتراوس" في وقت لاحق أن يسعى بالعلوم الاجتماعية إلى الهدف ذاته منطلقا من إنجازات علم اللّغة في مطلع القرن العشرين فقد كان يحسد علماء اللغة على نجاحهم في الانتقال بعملهم إلى مصافّ العلوم الرياضية والفيزيائية فتمخّض عمله الجادّ والدؤوب عن انبثاق المنهج البنيوي (شتراوس، 1977، الصفحات 14-40) والذي تحوّل بدوره فيما بعد إلى منظومة شبه فلسفية بولوجها مجالات متعددة في مسار الفكر والأدب والثقافة وعلم النفس والسينما والأزياء والموضة وغيرها.

1. إنّ نظرية المعرفة ترتبط ارتباطا وثيقا بنظرية "كانت" التي تقضي بنقد العقل، ذلك أنّ "كانت" أراد أن يطرح الفلسفة في ميدانها النظري خارج الأخلاق والجمال كما أراد أن يؤكّد على مشكلة مسألة المعرفة التي تقابل في التاريخ الفلسفي مشكل الوجود ومشكل القيم وجميع الأفكار والقضايا التي عرضناها من ذي قبل بخصوص العقل تعدّ إرهاصات لهذه النظرية التي تحوّلت إلى إبستيمولوجيا بعد أن مرّت بما يسمى بـ "فلسفة العلوم" (العالي، درس الإبستيمولوجيا أو نظرية المعرفة، 1986، الصفحات 28-76)

3. والتي شهدت تطوّرات بالغة الأهمية على يد فلاسفة كبار في مقدمتهم "أوغست كونت" لتصل في العصر الحديث إلى تكاملها واستقرارها مع "غاستون باشلار" (باشلار، الصفحات 19-41) و"توماس كون" (كون، 1988، الصفحات 17-38)

4. وبناء على كلّ ما سلف ذكره، يمكننا أن نقرّ بأنّ مكانة العقل والعلم في الفلسفات الحديثة هي ما ساهمت في انبثاق المنهج البنيوي إلى جانب عوامل أخرى سعت إلى الحثّ عليه والمساهمة في انبثاقه من خارج مضمار الفلسفة (حسين، البنيوية، 2010، صفحة 19) ومن أبرز تلك العوامل ظهور التجريب في الإبداع الأدبي.

إنّ للتجريب اللغوي بواعث كثيرة ربّما كان في مستهلّها النزعة الإنسانية نحو التغير لأنّه عندما يستقرّ نظام أو نمط معين من أنماط الحياة أو الفكر أو الثقافة لأمد طويل فإنّه يخلق حالة من الملل سرعان ما تفصح عن نفسها من خلال حداثة معينة قد تتعرّض لشتّى أنواع العداء من لدن التيار المحافظ ريثما تتمكّن من

ترسيخ أقدامها في مكان خاص لتغدو حقيقة واقعة لها أنصار ومؤيّدون حتّى لو كانت غير مفهومة في بدايتها (حسين، البنيوية، 2010، صفحة 21)

لقد سعى التجريب اللّغوي إلى الخلاص من قيود سيطرة التقليد فارتكز على مبادئ الفلاسفة المثاليين الجدد أمثال "برادلي و بيركسون وأرنست كاسيرر" فأكّد أنّ الإنسان وواقعه وعوالمه وكلّ ما يتعلّق به إنّما هو نشاط خاص وثمرة واضحة لنشاطاته الفكرية الخاصة (كورك، اللغة في الأدب الحديث، الحداثة والتجريب، 1989، صفحة 23)

5. فأشار إلى أهمية النزعة العلمية وكان بذلك يشكّل رافدا من روافد البنيوية (كورك، اللغة في الأدب الحديث، الحداثة والتجريب، 1989، صفحة 84) التي استندت في دعامتها على النزعة العلمية. وظهرت النزعة الرومانسية فيما بعد لتخلق ثورة على الاتجاهات الكلاسيكية المستقرة آنذاك لتتوسّع بعد ذلك إلى تيارات أدبية عديدة تولّدت عنها مدارس أخرى منها الرمزية والسريالية وغيرها. ونستطيع القول هاهنا أنّ هذه المذاهب ساهمت بإشارة الانتباه إلى الأدب كونه شكلا قبل كلّ شيء وهي في حدّ ذاتها روافد غير مباشرة للبنيوية وفي الوقت نفسه رافدا مباشرا من روافد الشكلية التي تعتبر بدورها أساسا هامّا انطلق منه مسار المنهج البنيوي بعد محاضرات فاردينان دي سوسيور (مرزة، 1986)

6. وحقيقة الأمر أنّ الشكلانية الروسية تعدّ من أبرز الجذور التي ساهمت في انبثاق المنهج البنيوي من زاوية غير مباشرة فقد استندت الشكلية في مراحلها الأولى على المذهب الرمزي وعلى مدى اهتمام الرمزية بالشكل بوصفه أداة حية "فالشكل واسطة إيصال مستقلة معبرة عن نفسها قادرة على توسيع نطاق اللّغة إلى أبعد من الإطار اليومي للمعنى عن طريق الإيقاع والتداعي والإيحاء" (هوكس، 1986، صفحة 56)

7. و يعتقد "تودوروف" أنّ "بول فاليري" و "مارسيل بروست" هما أسلاف البنيويين (حسين، البنيوية- تودوروف-، 1988، الصفحات 23-24) إلاّ أنّ عددا لا يستهان به من الباحثين يكاد يجمع على أنّ دوسوسيور هو الأب الروحي للبنيوية (فضل، 1988، صفحة 25)

8. وإن لم يستخدم لفظة (بنية) بتاتا وإنّما استخدم البديل (النسق/النظام) ولربّما كانت لثنائياته اللّغوية الأهمّية البالغة في انبثاق البنيوية (العالي، الميتافيزيقا: العلم والإيديولوجيا، صفحة 13)

9. وممّا لا شكّ فيه أنّ أعمال دي سوسيور والشكلانيين الرّوس أعقبت ثورة شبه شاملة توسّعت من أوروبا إلى أمريكا مستأثرة باهتمام كبير في النّصف الأوّل من القرن العشرين تحديدا مع فترة ما بين الحربين العالميتين (خليل، 1989، صفحة 09)

10. ولا سيما "رومان جاكبسون" (1896-1982) و"يان موكاروفسكي" الذي طرح مفهوم البنية لأول مرة عام 1923 في براغ لتشكّل نسقا قائما من العلاقات على "الوحدة الداخلية للكلّ من خلال العلاقات المتبادلة بين أجزائه ولا يقوم هذا النسق على العلاقات المتوافقة فحسب بل يقوم على التناقض والتواتر والصراع (موكاروفسكي، اللغة المعيارية واللغة الشعرية، 1984) وهذا كلّه فضلا عن البنيوية في الأدب من خلال جهود أبرز روّادها أمثال "رولان بارت" و"تودوروف" و"غودلير" وغيرهم.

- **حقيقة البنيوية:**

11. صحيح أنّ البنيوية وجدت دعامتها العلمية استنادا على اللسانيات التي أسّسها فاردينان دي سوسيور(1857-1913) لكنّنا سواء نظرنا إليها كتيّار فكري ضمن تيارات الفكر الغربي المعاصر أو بوصفها منهجا جديدا في العلوم الإنسانية" فإنّها ظهرت وتأسّست في مجال الأنثروبولوجيا قبل أن تمتدّ لتشمل مختلف الفروع المعرفية الإنسانية المختلفة" (بغورة، 2001، صفحة 06)

12. إنّ الدراسات البنيوية في مجملها أصبحت في الوقت الرّاهن تشكّل جزءا من تاريخ الفكر المعاصر إلاّ أنّها لا تزال تثير جدلا هائلا وبالخصوص بعد التطوّرات التي عرفتها التطبيقات البنيوية في ظلّ مختلف

المجالات المعرفية المتعدّدة تزامنا مع ظهور ما يسمى بـ "ما بعد البنيوية" أو بـ "البنيوية الجديدة وفلسفات ما بعد الحداثة" وكلّها تمثّل روافد اتجاهات تستلهم أسئلتها النظرية ممّا طرحته البنيوية سواء كان ذلك في ظلّ التحوّل الذي عرفته البنيوية الأدبية من بنية النص إلى سيميائية النص أو البنيوية الماركسية أو الأركيولوجية أو التفكيكية وكلّها فلسفات تجد قاعدتها في البنيوية وخاصة في ثلاثة محاور أساسية هي: تجديد العلوم الإنسانية والاهتمام باللغة ونقد العقل والتاريخ وإن كان مايزال من يواصل البحث البنيوي بالطريقة التي أسّسها ووظّفها "كلود ليفي شتراوس" (بغورة، المنهج البنيوي، بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات، 2001، صفحة 05)

13. ولعلّ حالة الغموض التي اكتنفها مفهوم البنيوية أدّى إلى إشارة جدل وتساؤلات كبيرة حول ماهيتها، ففريق صرّح معلنا أنّ البنيوية "ليست بأيّ حال من الأحوال فلسفة و إنّما منهج للبحث العلمي" (بياجي، 1971، صفحة 116)

14. وفريق ثان أصرّ على اعتبارها فلسفة ربّما قادت إلى إلغاء الذات وموت الإنسان" (غارودي، 1985، صفحة 03)

15. ولربما "فكرا بلا مفكرين" (ينظر، الصفحات 121-142)

16. ما أدّى إلى دخولها صراعات مع الفلسفات الأخرى و فريق ثالث بادر بالوقوف موقفا وسطا معلنا أنّ البنيوية في أساسها نظرية في العلم تؤكّد أهمية النموذج أو البناء في كلّ معرفة علمية وتجعل للعلاقات الداخلية والنسق الباطن قيمة كبرى في اكتساب أي علم (زكريا، 1988، صفحة 284)

والبنيوية في رأي جان بياجي منهج قبل أن تكون مذهبا ذلك لأنّها أسلوب فنّي متخصص وتقتضي التزامات عقلية معينة و تؤمن بالتدرج... لقد كان للمنهج الذي تمثله البنيوية تاريخ طويل يشكّل جزءا من تاريخ العلوم غير أنّ سماتها لم تكتشف إلاّ في وقت متأخر (زكريا، آفاق الفلسفة، 1988م، صفحة 279)

وحقيقة الأمر أنّ البنيوية لم تظهر فجأة في باريس وإنّما بلغت درجة ذروتها في نهاية الستينيات من حيث أنّها اتجاه فكري وفلسفي على أنّ هذا الانتشار السريع الذي جعل منها مذهبا فلسفيا شاملا ما يقرب من عشر سنوات لا ينبغي أن يحجب عنّا حقيقة جدّ مهمة مفادها أنّ البنيوية لم تصبح كذلك إلاّ "لأنّ المختصين قد تنبّهوا في ذلك الوقت بالذّات إلى الإمكانات الخصبة التي تكمن في فكرة البناء أمّا الفكرة في ذاتها أو مبدأ التفكير من خلال بناءات فقد كان معروفا قبل ذلك بوقت طويل" (التكريتي، 1996/6/12)

البنيوية إذا من حيث هي منهج قديمة العهد أمّا من حيث هي مذهب فلسفي شامل فهي ظاهرة حديثة في الفكر المعاصر وغدت بذلك مذهبا في العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية مع أنّ منشأها علم اللغة الحديث (عياد، يناير 1981، صفحة 188) وفي كتابه عن البنيوية، يقول جان ماري أوزياس" يمكن للفكر البنيوي أن يحدّد بكامله في نتاج كلود ليفي شتراوس"

لقد انبثقت البنيوية بوتيرة مباشرة بعد قيام "شتراوس" بتطبيق النموذج اللّغوي على الأنتروبولوجيا (علي، 1990، صفحة 41) فقد اعترف "كلود ليفي شتراوس" بأنّ الجيولوجيا والماركسية والتحليل النفسي شكّلت أبرز دعامات تفكيره (مجلة المنار(العدد6)، صفحة 128) حتّى أنّه كان يحسد علماء اللغة على انتقالهم بمجال عملهم إلى مصافّ الرياضيات والفيزياء من حيث الدقة والانضباط العلمي فيقول معترفا "إّننا نجد أنفسنا إزاء علماء اللغة في وضع حرج، فطوال سنوات متعددة كنّا نشتغل معهم جنبا إلى جنب وفجأة لم يعودوا معنا وإنّما انتقلوا إلى الجانب الآخر الذي يفصل العلوم الطبيعية عن العلوم الإنسانية والاجتماعية والذّي ظلّ الناس يعتقدون باستحالة عبوره وهكذا أخذ اللغويون يشتغلون بتلك الطريقة المنضبطة التي تعوّدنا أن نعترف باستسلام أنّها وقف على العلوم الطبيعية وحدها ممّا ولّد في نفوسنا قدرا من الأسى وكثيرا من الحسد" (زكريا، آفاق الفلسفة، 1988، الصفحات 282-283)

وبهذا، يكون صدى "شتراوس" خير معبّر عن البنيوية بأفكاره التي أثّرت في تأصيل البنيوية كلّما دعت الضرورة إلى ذلك ولعلّ أبرز ما قام به "كلود ليفي شتراوس" هو سحبه لمفهوم التزامن من علم اللّغة محاولا تطبيقه على الأنثروبولوجيا من خلال أسبقية اللّاوعي-إذ يشترك فيه الإنسان البدائي مع الإنسان المعاصر- وفي هذا تشترك بنيوية "شتراوس" مع "فرويد" وإن كان "فرويد" يدفع باللّاوعي نحو الجنس ويدفعه "شتراوس" نحو المجتمع (الموقف البنيوي من الانثروبولوجيا، 1981) فقد تعلّم شتراوس من ماركس أنّ الوعي يخدع (مجلة الفكر العربي المعاصر، صفحة 76) وتعلّم من "فرويد" أنّه حتّى في حالة التعابير الأكثر اعتباطية و اللّامعقولة من النشاط الذهني يمكن أن تحلّ رموزها و أن تأخذ معنى (مجلة الفكر العربي المعاصر، صفحة 76)

- **آفاق الاستفادة من المنهج البنيوي في علاقته مع العلوم الصورية والتجريبية**
- **أوّلا: في الرياضيات**

كثير منّا لا ينكر أنّ العلاقة التي تربط بين الرياضيات والفلسفة والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية علاقة قديمة قدم التاريخ "فلقد بنى الفلاسفة ومنذ القدم أنظمتهم الفلسفية مستلهمين في ذلك الأنساق الرياضية" (بغورة، المنهج البنيوي-بحث في الأصول والمبادىء والتطبيقات، 2001، صفحة 17) كما أنّ تاريخ ظهور أوّل كتاب يعتمد على الطريقة الرياضية هو كتاب "**محاولات في نظرية الاقتصاد**" لـ:"كورنو" عام 1838 و يعدّ أوّل كتاب في الاقتصاد النظري كتب بلغة التحليل الرياضي (بودون، صفحة 06)

وفي سياق الحديث عن العلاقة القائمة بين البنيوية والرياضيات إذا ما نظرنا إلى فكرة البنية ذاتها، فيمكننا أن نقرّ بأنّ " فكرة البنية هي بالأساس مفهوم رياضي تكوّن في إطار نظرية المجموعات" (Philosophies، 1984، صفحة 49)

ومن الوجهة التاريخية، فإنّنا نلمح أنّ المفاهيم الأكثر قرابة من البنيوية هي مفاهيم "المجموعة" أو "الفريق" أو "الزمرة" والمعروف أنّ "البنية الأكثر قدما هي بنية الفريق التي تمّ اكتشافها بواسطة غالوا والتي غزت رياضيات القرن العشرين" (بياجي، البنيوية، 1971، صفحة 08) وتبرز المساهمة الكبرى للرياضيات في تطوير مجال اللسانيات البنيوية في هذا المجال خاصة عند حلقة كوبنهاجن أو ما يعرف بنزعة الغلوسيماتيك التي يمثّلها "لويس هلمسلف" وكذلك النزعة التوليدية التحويلية التي يمثّلها نعوم تشومسكي ولعلّ المساهمة الكبرى التي كانت تسعى لإلحاق الرياضيات بفكرة البنية هي مساهمة مدرسة بورباكي ذلك لأنّ الرياضيات التقليدية كانت تتألّف من فصول غير متجانسة كالجبر و نظرية الأعداد والتحليل والهندسة وحساب الاحتمالات والتفاضل والتكامل...وبما أنّ بنية الفريق استطاعت أن تطبّق على العناصر الأكثر شمولا وليس على العمليات الجبرية فقط، فقد وجدت مجموعة البورباكي نفسها مضطرة إلى تعميم بحث البنية حسب مبدأ مطابق في التجريد ألا وهو مبدأ البنية.

وبهذا الصدد، ميّز فريق مجموعة البورباكي بين ثلاثة أنواع من البنى سمّوها بالبنيات الأم أو البنيات الأساسية نذكرها على التوالي:

1- البنيات الجبرية

2- بنيات الترتيب

3- بنيات طوبولوجية

وعلى أساس هذه البنيات الأم أو البنيات الأساسية، غدا موضوع الرياضيات منبثقا في دراسة البنيات الرياضية "فالرياضيات علم مهمّته تصنيف جميع البنيات الممكنة- وكلمة بنية مستعملة هنا بمعنى يختلف بدون شكّ عن المعنى الذي يفهمه منها عامّة الناس، يجب النظر إلى هذه الكلمة من خلال دلالتها الواسعة بحيث تصبح قادرة على أن تشمل تقريبا كلّ شكل من أشكال الانتظام يمكن إدراكه بالفكر" (الجابري، 1982، الصفحات 88-89) وبذلك، يرتبط مفهوم البنية في الرياضيات أساسا بمفهوم الشكل الذي يمثّل تنظيما منطقيا يتمّ إدراكه عن طريق العقل.

وفي الحديث عن العلاقة التي تربط الرياضيات بالبنيوية في المجال التطبيقي، نخصّ بالذكر ميدان تحليل بنى القرابة. وجاء هذا واضحا في كتاب "كلود ليفي شتراوس" (**البنى الأولية للقرابة**) مستندا فيه على النماذج الرياضية أين يبرز موضّحا تلك العلاقة التي تربط المنهج البنيوي بالرياضيات والتي يمكن أن نحصرها في نقطتين أساسيتين:

1- المنهج البنيوي كالرياضيات والذي يركّز على الصورية والشكلية في دراسته للظواهر

2- توافق الرياضيات والبنيوية بدراسة العلاقة لا الكينونة " فالأطروحة المركزية للبنيوية هي توكيد أسبقية العلاقة على الكينونة وأولوية الكلّ على الجزء. فالعنصر لا معنى له ولا قوام إلاّ بعقدة العلاقات المكونة له ولا سبيل إلى تعريف الوحدات إلاّ بعلاقاتها فهي أشكال لا جوهر" (غارودي، البنيوية فلسفة موت الإنسان، 1985، صفحة 13)

- **ثانيا: في الفيزياء والبيولوجيا**

ترتبط البنيوية بالفيزياء ارتباطا وثيقا في مفهوم السببية بوجه خاص فالسببية في نطاق الفيزياء "صرح نظري وليست شيئا معطى إمبريقيا" (بياجي، البنيوية، 1971، صفحة 08)

إنّ الميزة الأساسية للسببية في إطارها الفيزيائي ترتبط ارتباطا مباشرا بمفهوم البنية في نطاق المجال البنيوي ذلك أنّ البنية تشكّل نمطا من العقلانية الباطنية للأشياء لأنّها ذات طبيعة عقلية لا شعورية كما أنّ البيولوجيا في اهتمامها بالعضو الحي كثيرا ما تهتمّ بقضية الضبط الذاتي باعتبارها قائمة على ضبط عناصرها بشكل ذاتي.

وعلى الصعيد البيولوجي، فإنّ "البنية في المجال البيولوجي تستند إلى مفهوم المجموعات، فالبنية بهذا المعنى هي مجموعة العلاقات القائمة بين عناصر المجموعة" (حسين، البنيوية، 2010، صفحة 28)

وبهذا، غدت البيولوجيا قائمة على دراسة العضو الحي بوصفه نسقا أو بنية في إطار نسق عامّ وهاهنا، من هذا المنطلق، ترتسم العلاقة التي تربط المنهج البنيوي بمختلف العلوم الطبيعية ذلك أنّ الصورة لا تكتمل إلاّ باستفادة البنيوية من المجال التقني.

- **آفاق الاستفادة من المنهج البنيوي في علاقته مع الفلسفة:**

إنّ العلاقة التي تربط بين البنيوية والفلسفة علاقة وطيدة، فقد عرفت فرنسا منذ أوائل القرن التاسع عشر فلسفة "هنري برغسون" ووجودية "ج ب سارتر" كما برزت نزعة البنيوية من منتصف الخمسينيات وحتّى نهاية الستينيات من هذا القرن وتحديدا من تاريخ نشر كتاب" ليفي شتراوس" (**الأنتروبولوجية البنيوية**) سنة 1958 حتّى سطعت نور أشكال جديدة من الفلسفة الفرنسية سمّيت بأسماء متعددة كـ"فلسفة مابعد البنيوية وما بعد الحداثة وفلسفة التفكيك وفلسفة الاختلاف وفلسفة التأويل..."

لقد اعتنت فلسفة "هنري برغسون" بالجانب الروحي والذاتي للإنسان مركّزة على روحانية الديمومة والحدس والحرية، تلك الروحانية التي كانت تتعارض مع التقدم العلمي والفكر التقني على السواء ف "برغسون" يرى أنّ "الفلسفة الحقيقية هي الميتافيزيقا المتجهة نحو الجوهر الداخلي للوجود الحي وعلى أساس هذا الفهم للعالم بوصفه عملية إبداعية قامت نظرية المعرفة عند "برغسون" وأصبحت مقولة النشاط، الحدس، الحرية من أساسيات هذه النظرية" (ساخاروقا، 1989، صفحة 07) ويرى أيضا أنّه في "وسع الآلة أن تؤلّف استمرارا للديمومة الحيوية أنّه بفلسفته يجمد على الرغم من ذلك الفكر التقني" (أوزياس، 1975، صفحة 159) وانطلاقا من هذا الاتجاه، طوّر "سارتر" مفاهيم الذاتية مع اهتمام مكثّف بقضايا الذّات والشعور مستعملا الحجج الكلاسيكية القديمة في رفض السلوكية والماركسية غير محاول الاستفادة من الإنجازات العلمية في بعض أعماله النفسية(وأعني بذلك كتابه "**موجز لنظرية الانفعال**" أو كتابه " **نقد العقل الجدلي**") ولعلّ مهمّة الدّفاع عن قيم الفلسفة الذاتية ساهمت لفترة طويلة في تأخير منجزات الثورة التقنية العلمية.

لذلك، كان من الطبيعي أن تظهر البنيوية في حلّة قيم مخالفة ترفض الذاتية وتأسّس لنظريات بناء على نتائج المنجزات العلمية والتقنية فإذا "كانت الفلسفة الفرنسية البرجوازية قد شقّت طريقها في العشرينيات و الثلاثينيات من هذا القرن على أساس نقد حادّ للعلم وعبّرت عن نفسها في اتجاهات لاعقلانية وصوفية البرغسونية، الوجودية المسيحية، الروحية فلقد جرى في الأربعينيات و الخمسينيات تشكّل ملحوظ لفلسفة الإنسان العياني أمّا في الستينيات فإنّ بعض الأفكار الوضعية وأشكال مختلفة (البنيوية) بدأت تظهر على الساحة الفرنسية" (ساخاروقا، من فلسفة الوجود إلى البنيوية، 1989، الصفحات 161-162)

ففي غمار الحديث عن علاقة البنيوية بالفلسفة، يمكننا أن نقرّ أنّ المراحل الأساسية للفلسفة الفرنسية بدأت بالروحانية ثمّ بالوجودية وصولا إلى الفلسفة العلمية التي عرفت أشكالا مختلفة (الوضعية المنطقية) مع "جاك بوفراس" و" فنسون ديسمبر" والإبستيمولوجيا مع "باشلار" و"كونغليم" وأخيرا البنيوية مع أقطابها.

هذه الأنماط الفلسفية والتي يغلب عليها الطابع العلمي تؤكّد أزمة الفلسفة الذاتية الفرنسية وعدم قدرتها على تناول القضايا العلمية والاجتماعية (بغورة، المنهج البنيوي-بحث في الأصول والمبادىء والتطبيقات، 2001، صفحة 52) ومن ضمن هذه الأشكال الفلسفية الجديدة القائمة على العلم تحتلّ البنيوية مكان الصدارة وذلك نظرا لتصدّيها لكلّ الفلسفات الذاتية وتقديمها لبديل نظري جديد لذلك، فما من غرابة إن توسّعت البنيوية بشكل شاسع في الستينيات من القرن العشرين مرتبطة ببروز أسماء أعلام وعناوين كتب ميّزت هذه الفترة، فظهور كتاب " ليفي شتراوس" (**الفكر المتوحش**) سنة 1962 جاء معلنا عن القطيعة مع كلّ الفلسفات الذاتية وعلى وجه الخصوص في تركيزه على نقد الفلسفة الوجودية ورسوبها أو فشلها في الجمع بينها وبين الماركسية في محاولة جاء فيها كتاب "سارتر" بعنوان "**نقد العقل الجدلي**" كما ظهرت في نفس الفترة الزمنية كتب أعلام البنيوية: كتاب الدكتور "لكان" وأعمال الفيلسوفين "لويس ألتوسير"(1918-1990) و" ميشيل فوكو"(1926-1984) هذا الأخير الذي أكّد على قضيتين مهمتين أولهما تتعلّق بعلاقة البنيوية بالفلسفات المغايرة لها وثانيهما مسألة "القطيعة

المعرفية" التي كانت البنيوية سببا في إحداثها مع تلك الفلسفات باسم العلوم الإنسانية. وفي سياق الحديث عن العلاقة التي تجمع بين البنيوية والإبستيمولوجيا، يمكننا أن نحصرها في النقاط التالية:

1) تندرج الإبستيمولوجيا والبنيوية ضمن التيار العقلاني المعاصر.

2) تخلّص الإبستيمولوجيا والبنيوية من المشكلات التقليدية للفلسفة الفرنسية وتصدّيها للنزعات اللاّعقلانية.

3) الاعتماد على المعرفة العلمية كأساس لحلّ المشكلات المعرفية والمنهجية للمعرفة الإنسانية.

4) تتفق الإبستيمولوجيا والبنيوية في محاربتهما للنزعة الذاتية في الفلسفة.

وبالتّالي، فإنّ البنيوية تعدّ منهجا ونظرية لا يمكن عزلها أو فصلها عن مجمل التطوّرات المعرفية في مجالات العلم الطبيعي والإنساني والفلسفي ولا تكمن أهمية البنيوية فقط في استيعابها لتلك التطورات وإنّما في الصيغة الجديدة التي قدمت بها تلك التطورات وإعادة تحويلها إلى منهج جديد في البحث العلمي مع نظرة فلسفية مميّزة.

- **آفاق الاستفادة من المنهج البنيوي في علاقته مع الألسنية:**

بما أنّ الألسنية مثّلت محورا أساسيا و أنموذجا علميا بالنسبة للبنيوية، فلن نبالغ إن صرّحنا أنّ المنهج البنيوي هو المنهج الألسني في حدّ ذاته نسبة إلى ما حقّقته اللسانيات الحديثة على يد العالم اللغوي السويسري "فرديناند دي سوسيور" (1857-1913) من تقّدم علمي واضح سمح لها أن تحقّق الاستقلالية والموضوعية والقانون باعتبار اللسانيات البنيوية أحد المدارس الهامة على صعيد الألسنية الحديثة وكون المنهج البنيوي يعتمد أساسا على التحليل الألسني والفونولوجي في صورته البنيوية.

وفي صدد الحديث عن الدراسات اللغوية، ما من أحد ينكر أنّها مرت بثلاثة مراحل حتى وصلت إلى مرحلتها التي أصبحت تعرف فيها بالمرحلة الألسنية.

ففي المرحلة الأولى، كان التركيز في مجمله على النحو حيث كانت تقوم على "وضع القواعد للتمييز بين الصحيح وغير الصحيح من صيغ الكلام" (سوسيور، 1982، صفحة 08) تليها المرحلة الثانية التي ظهرت فيها الفيلولوجيا أو ما يعرف بـ "فقه اللغة" على يد "فريديريك أغسطس وولف" سنة 1977 وكانت مهمته آنذاك تتمثل في (ضبط النصوص وتأويلها والتعليق عليها) (سوسيور، دروس في الألسنية العامة، 1982، صفحة 08)

وفي المرحلة الثالثة، ظهرت الدراسات التاريخية المقارنة أو ما يسمّى بالنحو المقارن مع "فرانز بوب" وذلك في كتابه" **نظام السنسكريتية الصرفي وعلاقته باللغات اليونانية واللاتينية والفارسية والألمانية**" وذلك في سنة1816.

وفي الأخير، سطع نور الألسنية مع "فردينان دي سوسيور"" ليظهر جليا من خلال محاضراته "دروس في الألسنية العامة" سنة 1916 أي ما يوازي مرور قرن بأكمله على ظهور كتاب "فرانز بوب"(1858-1942). وفي الحديث عن موضوع الألسنية، يرى " لويس هلمسلف"(1899-1965) أنّ "الألسنية الحقيقية تولي بنية اللغة جلّ اهتمامها وتساهم عبر تركيزها على البنية في تكوين العلوم الإنسانية، فالنظرية اللغوية بنظره تتوسل تحليل بنية اللغة عن طريق اللجوء إلى مبادئ شكلية" (زكريا م.، 1985، صفحة 247)

وبالتّالي، فإنّ الموضوع الجوهري للألسنية يقتضي دراسة بنية اللغة باعتماد طرق رياضية ومنطق رياضي بحكم أنّ اللغة بنية قائمة بذاتها. ممّا يعني أنّ موضوع الدراسة الألسنية الحقيقي يقتضي دراسة اللغة التي ينظر إليها كواقع قائم بذاته ذلك أنّ اللّغة أداة لكلّ ما هو دالّ وهي في الأساس تلك الأداة التي تحقّق عملية التواصل عبر نظام من الرموز أو هي واقع قائم بذاته لا تحتاج إلى أي عنصر خارجي لتحديدها. إنّها

في الوقت نفسه "مجال للمعرفة تتمتع بقوانينها وبنياتها وشروط تواجدها" (سوسيور، دروس في الألسنية العامة، 1982، صفحة 09)

هذا وقد كان الفضل الكبير لعالم اللغة السويسري "فاردينان دي سوسيور" في كونه أوّل من دعا إلى دراسة المنهج الوصفي في اللسانيات من حيث هو بديل منهجي عن المنهج التاريخي في رصد الظاهرة اللسانية وكشف النقاب عن أنظمتها ووظيفتها وسرعان ما تطوّر هذا التفكير المنهجي على يد تلامذته والمتأثرين بآرائه النقدية ليخرج في أبّهة حلّة جديدة اصطلح عليها تسمية "البنيوية".

والبنيوية في أصلها اللغوي مصطلح اشتقّ من كلمةstruere بمعنى البناء، ولهذا المصطلح في اللغة الفرنسيةstructure دلالات متعددة منها النظامordre والتركيب constitution والهيكلة organisation والشكل forme إضافة إلى أنّ علوما أخرى غير اللسانيات/ علم اللّغة سارعت في استعمال هذا المصطلح كعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد والجيولوجيا والكيمياء والرياضيات والفلسفة وهذا ما يعني سيادة المنهج البنيوي على تفكير تلك المرحلة آنئذ.

وفي حقيقة الأمر أنّ المعنى الدقيق لكلمة structure لم يتمّ تحديده إلاّ في عام 1926 على يد مدرسة "براغ" – ذلك المصطلح الذي يفيد معنى الترتيب الداخلي للوحدات المكونة للنظام اللساني–

وترى النظرية البنيوية التي بدأت عند "دي سوسيور" وازدهرت على يد كلّ من "ليونارد بلومفيلد"(1887–1949) و "لويس هلمسلف" أنّ دراسة المادة اللغوية تمّت ضمن إطار سلوكي يؤكّد حتمية فهم الفعل في كنف ضوء المثيرstimulus والاستجابةresponse ممّا أفضى إلى أن يكون المنهج البنيوي منهجا استقرائيا يبدأ أوّلا بجمع المادة ليصل بعد ذلك إلى القاعدة أو النظرية.

– **خاتمة:**

لقد انبثقت البنيوية بوتيرة مباشرة بعد قيام "كلود ليفي شتراوس" بتطبيق النموذج اللّغوي على الأنثروبولوجيا وخير دليل على ذلك حين اعترف "كلود ليفي شتراوس" بأنّ الجيولوجيا والماركسية والتحليل النفسي شكّلت أبرز دعامات تفكيره حتّى أنّه كان يحسد علماء اللغة على انتقالهم بمجال عملهم إلى مصافّ الرياضيات والفيزياء من حيث الدقة والانضباط العلمي كما ذكرنا آنفا.

وبهذا، يكون صدى "كلود ليفي شتراوس" خير معبّر عن البنيوية بأفكاره التي أثّرت في تأصيل البنيوية كلّما دعت الضرورة إلى ذلك ولعلّ أبرز ما قام به "كلود ليفي شتراوس" هو سحبه لمفهوم التزامن من علم اللّغة محاولا تطبيقه على الأنثروبولوجيا من خلال أسبقية اللّاوعي-إذ يشترك فيه الإنسان البدائي مع الإنسان المعاصر- وفي هذا تشترك بنيوية "شتراوس" مع "فرويد" وإن كان "فرويد" يدفع باللّاوعي نحو الجنس و"شتراوس" يدفعه نحو المجتمع فقد تعلّم "شتراوس" من "ماركس" أنّ الوعي يخدع وتعلّم من "فرويد" أنّه حتّى في حالة التعابير الأكثر اعتباطية و اللّامعقولة من النشاط الذهني يمكن أن تحلّ رموزها و أن تأخذ معنى.

- **قائمة المصادر والمراجع:**

ميشال, ز. (1985). *الألسنية علم اللغة الحديث-المبادئ والإعلام-*. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

بغورة, ا. (2001). *المنهج البنيوي، بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات*. عين مليلة- الجزائر-: دار الهدى.

عبد المعطي, ع. ا. (1981). *اتجاهات نظرية في علم الاجتماع*. الكويت: عالم المعرفة.

ساخاروفا, س., & برقاوي, أ. (1989). *من فلسفة الوجود إلى البنيوية*. دار دمشق.

خليل, ح. (1989). *العربية وعلم اللغة البنيوي*. مصر: دار المعرفة الجامعية.

فضل, ص. (1988). *نظرية البنائية في النقد الأدبي* (الطبعة الثالثة). بغداد: دار الشؤون الثقافية.

حسين, م. ع. (2010). *البنيوية*. دمشق: رند للطباعة والنشر والتوزيع.

كون, ت., عبد القادر, م., & علي, م. (1988). *تركيب الثورات العلمية*. بيروت: دار النهضة.

ابراهيم, ع. ا., الغانمي, س., & عواد, ع. (1990). *معرفة الآخر*. بيروت: المركز الثقافي العربي.

هوكس, ت., & الماشطة, م. (1986). *البنيوية وعلم الإشارة*. بغداد: دار الشؤون الثقافية.

جان ماري, أ., & العوا, ع. (1975). *الفلسفة والتقنيات*. باريس، بيروت: منشورات عويدات.

عياد, ش. (1981). موقف من البنيوية . *مجلة فصول*, (1).

دي سوسيور, ف., القرماوي, م., الشاوش, م., & عجين, م. (1982). *دروس في الألسنية العامة*. تونس: الدار العربية للكتاب.

مرزة, ح. س. ع. (1996). *أثر محاضرات دي سوسيور في الدراسات العربية الحديثة* (أطروحة ماجستير). مجلس كلية الآداب–جامعة بغداد–, بغداد.

ليفي شتراوس, ك., & صالح, م. (1977). *الأنثروبولوجيا البنيوية*. دمشق: وزارة الثقافة.

غارودي, ر., & طرابيشي, ج. (1985). *البنيوية فلسفة موت الإنسان*. بيروت: دار العودة.

كورك, ج., & عزيز, ي. ي. (1989). *اللغة في الأدب الحديث، الحداثة والتجريب*. بغداد: دار المأمون للترجمة والنشر.

وقيدي , م. (1982). *الإبستيمولوجيا الوضعية عند أوغست كونت* (العدد1). الكويت: عالم الفكر.

زيناني, ج. (1980). الفلسفة بلا مركز عند جاك دريدا. *مجلة الفكر العربي المعاصر–بيروت–*.

الجابري, م. ع. (1982). *مدخل إلى فلسفة العلوم، تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة*. بيروت: دار الطليعة.

جان, ب., منيمنة, ع., & أوبري, ب. (1971). *البنيوية*. منشورات عويدات.